

(٤٨) خطبة له ﷺ

فى التحذير من الدنيا

خطب رسول الله ﷺ بعد العصر ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله :

« أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلُوَّةٌ ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَنَظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ ، أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ » .

ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ، فقال :

« إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى » .

(إعجاز القرآن ص ١١٣)

فى هذه الخطبة - كما قرأنا - يذكّرنا النبى ﷺ بأن الدنيا خضرة حلوة : أى أنها خضرة من حيث المنظر ، حلوة من حيث الذوق ، والمراد أن الله زينها للناس ، فالنفوس تميل إليها ميلها إلى الشيء اللذيذ الطعم الجميل المنظر .

ثم إذا كان الرسول ﷺ قد قال بعد هذه الإشارة :

« أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » :

فالمراد هو أن الله سبحانه وتعالى جاعلكم خلفاء الأرض تَخْلِفُونَ من كان قبلكم فيكون لكم السلطان والسيادة ، وتكون مقاليد الأمور بأيديكم ، وخزائن الأموال تحت تصرفكم ؛ كما وعدكم الله عز وجل بذلك فى قوله :

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

كََمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» (١) : ليرى سبحانه وتعالى كيف يكون تصرفكم فيما خولكم من سيادة . . . إلخ .

ثم بعد ذلك يقول الرسول ﷺ :

« فَاتَّقُوا الدُّنْيَا » ، وذلك لأن حبها رأس كل خطيئة وسبب كل فساد وشر ، فهى التى تحمل أهلها على البغى والظلم ، وتقودهم إلى اللذات القاتلة ، وتشغلهم عن ذكر الله والعمل للآخرة .

« وَاتَّقُوا النِّسَاءَ » ، وذلك لأن النساء شراك الفتن ، وحبائل الشيطان .
وفى الحديث :

« مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْكُمْ » .
وفى رواية :

« .. فَمَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » .

(١) سورة النور : ٥٥ .

قال العلقمى : فى الحديث أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن ،
ويشهد له قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ (١) ،
فجعلهن من عين الشهوات وبدأ بهن قبل بقية الأنواع ، إشارة إلى أنهن
الأصل فى ذلك . .

ثم إذا كان الرسول ﷺ قد قال بعد ذلك :

«أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ» :

فهذا معناه أن الحق أحق أن يتبع ، وأنه يجب على الإنسان أن يقول
الحق ولو كان مُرّاً ، وأن لا يخاف فى الله لومة لائم . .

وإذا كان الرسول ﷺ بعد ذلك قد ختم الخطبة بقوله :

«إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا
مَضَى» :

فهذا معناه أن يوم الفراق قريب جداً ، وإلى هذا يشير لقمان الحكيم
فى وصية له :

«يَا بُنَيَّ إِنَّكَ مِنْذُ نَزَلَتْ إِلَى الدُّنْيَا اسْتَدْبَرْتَهَا وَاسْتَقْبَلْتَ الْآخِرَةَ ،
فَدَارَ أَنْتَ إِلَيْهَا تَسِيرُ أَقْرَبُ مِنْ دَارٍ أَنْتَ عَنْهَا تَرْحَلُ» .
فلتعتظ بكل هذا ، والله ولى التوفيق .

(١) سورة آل عمران : ١٤ .